

## الدعاية الطائفية: دراسة تحليلية في واقع ومستقبل الظاهرة (العراق أنموذجاً)

محمد رشيد صبار<sup>1</sup>، أمجد زين العابدين طعمة<sup>2</sup>

### ملخص

تقدم الدراسة توضيحاً لمعنى الطائفية السياسية، والخطر الذي تشكله ظاهرة الدعاية الطائفية في العراق، على واقع ومستقبل الوحدة الوطنية، لهذا البلد. إشكالية الدراسة تتركز، في تحديد، إلى أي مدى تؤثر ظاهرة الطائفية السياسية ودعايتها في وحدة العراق في الحاضر والمستقبل، وما هو مستقبل هذه الظاهرة؟ وتستند الدراسة على فرضية مفادها "بأن ظاهرة الطائفية السياسية ودعايتها في العراق، والتي يستخدمها بعض الفئات السياسية والاجتماعية لترسيخ نفوذها وسيطرتها، سيكون له أثراً سلبية على واقع ومستقبل البلد، مما يتطلب وقفة جادة من قبل المعنيين لغرض أبعاد المجتمع عن هذه الآفة الخطيرة".

**الكلمات الدالة:** الدعاية، الطائفية، العراق، الانعكاسات، المجتمع.

### المقدمة

لم تكن قضية وظاهرة الطائفية حاضرة في السياسة والثقافة العربيتين في أي فترة كما هي اليوم، وما يثير التساؤل حول هذا الحضور، أنه يأتي بعد ما يقارب القرن من تأكيد عهد الوطنية، ورفض وتجاوز جميع أشكال الانتماءات الطائفية والقبلية، وتلاشي مظاهرها، المعلنة على الأقل، إلى حد كبير، وفي مختلف المجتمعات الإنسانية. فمن الواضح ان الكثير من المثقفين والإعلاميين وصناع الرأي يبدون وكأنهم يكتشفون، ولأول مرة، قوة هذه الانتماءات، ويدعون إلى مراجعة الطروحات القومية والوطنية التي ساعدت على تجاهلها تارة، أو إنكارها تارة أخرى، ويعتقدون أن الاعتراف بها وإعطائها (حقوقها)، والكف عن إنكارها، هو الطريق الوحيدة والأسلم لمعالجة آثارها، وإنقاذ رهان الدولة والحدثة الوطنية. وهناك من يذهب إلى أكثر من ذلك، ويعتبر أن الحروب والنزاعات الداخلية والإقليمية بينت أنه لا يوجد على الأرض إلا الطوائف، وأن الخاسر الأكبر في هذا الصراع هو الجماعات التي لم تعرف كيف تنظم نفسها، وتقاتل على أجندة طائفية، مثلها مثل الآخرين.

ستقدم الدراسة سرداً تفصيلياً لمعنى الطائفية السياسية بصورة عامة، ومن ثم ستتناول الخطر الذي تشكله ظاهرة الدعاية الطائفية في العراق على واقع ومستقبل الوحدة الوطنية، لهذا البلد الذي عانى ولا يزال يعاني من تداعيات الطائفية ودعاياتها التي استهدفته وما زالت، وعلى الرغم من تراجع حدتها في الفترة الأخيرة.

وتبرز إشكالية الدراسة، في تحديد، إلى أي مدى تؤثر ظاهرة الطائفية السياسية ودعايتها في واقع ومستقبل وحدة العراق، وما هو مستقبل هذه الظاهرة؟

وتستند الدراسة على فرضية مفادها بان ظاهرة الطائفية السياسية ودعايتها في العراق، والتي يستخدمها بعض الفئات السياسية والاجتماعية لترسيخ نفوذها وسيطرتها، سيكون له أثراً سلبية على واقع ومستقبل البلد، مما يتطلب وقفة جادة من قبل المعنيين لغرض أبعاد المجتمع عن هذه الآفة الخطيرة.

ولغرض إحاطة موضوع الدراسة، فقد ارتأينا تقسيمها إلى مقدمة ومحورين وخاتمة، سيتناول المحور الأول الإطار المفاهيمي للدراسة، فيما سيكون المحور الثاني مخصصاً لدراسة وتحليل واقع ومستقبل الدعاية الطائفية في العراق.

<sup>1</sup> جامعة بغداد<sup>2</sup> الجامعة المستنصرية. تاريخ استلام البحث 2020/1/12، وتاريخ قبوله 2020/6/2.

## المحور الأول: الإطار المفاهيمي للدراسة:

### أولاً: مفهوم الدعاية:

على الرغم من أن موضوع الدعاية، شغل، ومنذ فترة ليست بالقصيرة، اهتمام العديد من المفكرين والباحثين المختصين في مجال الإعلام والسياسة، إلا أنه لم يكن هنالك اتفاق في وجهات نظرهم، حول تحديد تعريف وافي وجامع لمصطلح (الدعاية)، وإنما هنالك مجموعة من التعاريف التي حاول من وضعها، تسليط الضوء على هذا المصطلح، وفق القنوات والمعطيات والأفكار التي يؤمنون بها أو يدعونها، واستناداً على خلفياتهم ومرجعياتهم الفكرية والسياسية، ولغرض الوصول إلى تعريف واضح ومنطقي وقريب إلى الحقيقة للمصطلح أعلاه، سنستعرض عدداً من التعريفات.

إذا ما تجاوزنا تعريف مصطلح الدعاية لغوياً، بعدد الدعاء إلى الشيء، والحث على إتباعه، أي البحث على قصده أو مراده، والوسيلة المتخذة لنشر مبدأ أو دعوة أو ترويج لأمر معين أو سلعة تجارية (يوسف، 2011)، فإن من أوضح التعريفات، التي فسرت الدعاية اصطلاحاً، صدرت عن العالم الفرنسي جاك أيلول، الذي عرفها "بأنها مجموعة من الطرق التي يتم استخدامها بواسطة مجموعة منظمة تبغي أن تحقق مشاركة إيجابية نشطة أو سلبية في أعمالها"، فيما يعرفها والتر ليبمان "بأنها محاولة التأثير في نفوس الجماهير والتحكم في سلوكهم لأغراض ذات قيمة مشكوك فيها، في مجتمع ما وفي زمان معين"، في حين فسرها وريفرود عام 1923 "بأنها نشر معلومات وآراء لتحقيق أهداف أو مصلحة معينة، مقسماً إياها إلى نوعين، (عادية وشريرة)، فيما عرفها معهد تحليل الدعاية بالولايات المتحدة الأمريكية "بأنها التعبير عن الرأي أو عن العمل، يقوم به عن عمد أفراد أو جماعات آخرون للوصول إلى غايات محددة بواسطة مناورات سيكولوجية" (العبد، 2007).

فيما يعرفها آخرون بأنها "العملية التي تسعى من ورائها بعض الجهات أو الدول إلى التأثير على سلوك الجمهور ومواقفه، سواء لأهداف نبيلة أو غير نبيلة، مثل التأثير على الناخب أو العسكري، فضلاً عن المواطن أو الشخص العادي" (سامح، 2014)، أو "هي نشر الأفكار والعقائد والمواقف السياسية على أوسع نطاق بهدف إيصالها إلى أكبر عدد ممكن، ويستخدم الدعاة أفضل وسائل الاتصال وأكثرها تأثيراً في الناس، وتميل الدعاية إما إلى إبراز الوجه الجميل وإخفاء العيوب والأخطاء، أو إلى التأثير في الشخص أو القطاع المخاطب" (نامي، 2016).

وقد قام ربيع كذلك واحدة من أكثر التعريفات قرباً للواقع حين عرفها "بأنها فن تكتيل القوى للعاطفية والمصالح الفردية بقصد خلق حالة من التششت الذهني والغموض الفكري الذي يسمح بتسهيل عملية الاقتناع بفكرة أو مبدأ، ما كان يمكن أن يصل إليه الفرد لو ترك لمنطقه الذاتي يتطور ب تلقائية دون أي ضغط معنوي أو توجيه فكري، وكذلك تعريف معجم مصطلحات الإعلام "بأنها التأثير على آراء ومعتقدات الجماهير لجعلها تتخذ اتجاهاً معيناً نحو نظام أو مذهب بصورة إيجابية أو سلبية، كما تحاول تهئية نفسيات الأفراد لقبول وجهات النظر التي تدعو لها والتشبع بها، وقد تلجأ في ذلك إلى تشويه الحقائق وتحريفها" (العبد، 2007، الصفحات 22-23).

وتقسم الدعاية من حيث نشاطها إلى أنواع منها الدعاية السياسية، التي عرفها البعض من علماء السياسة والإعلام والاجتماع "بأنها فعل ونشاط بشري فردي أو جماعي، منظم وهادف لتوصيل معلومة أو أيديولوجية وبكل الوسائل المتعددة والمتاحة، وكثيراً ما تركز عملها بالمجال السياسي، ولديها أهداف واضحة ومحددة، من خلال التأثير على أفكار وتصورات الآخرين، بغض النظر عن صحة أو خطأ المعلومات التي تستخدم لتحقيق هذا الهدف أو غيره (شاوي، 2014)، وهناك أنواع أخرى منها الدعاية الاجتماعية والدينية والتجارية، والحربية أو ما يطلق عليها الحرب النفسية، والتي تنشط أثناء الحروب وتستهدف إضعاف الروح المعنوية عند الخصوم.

علاوة على ذلك فإن المختصين والباحثين في مجال السياسة والإعلام صنفوا الدعاية طبقاً لمصدرها إلى نوعين، الدعاية العمودية: وهي من النوع التقليدي ويقوم بها قائد أو سياسي أو زعيم ديني، بحكم سلطته وموقعه القيادي، يسعى من خلاله للتأثير في الجمهور الذي يتبعه، أما الصنف الثاني فهو الدعاية الأفقية: فإنها من أشكال الدعاية التي تطورت حديثاً، وقد تكون سياسية أو اجتماعية من حيث المضمون، وتسمى أفقية لأنها تتم داخل الجماعة وليس من فوقها عكس الصنف الأول (العبد، 2007، صفحة 53).

تعود جذور نشأة الدعاية إلى بدايات البشرية نفسها، فمع بدأ الإنسان بالتعبير عن نفسه عبر بعض الأدوات البسيطة المتاحة، مثل الكلمات والرموز وغيرها، فإنه كان يسعى إلى الوصول إلى بعض أهدافه من خلال خطاب عام يحمل الإيهام والغلو والمبالغة، أو تحريف الحقائق، فضلاً عن إعادة صياغة الحقائق أو الأخبار، واستخدمت الدعاية في العصور القديمة في حضارة

ما بين النهرين وبلاد النيل والإغريق، ونجحت العديد من الحضارات في توظيف هذا الأسلوب لحسم نتائج الحروب والمعارك، حتى قبل اندلاعها أحياناً، كما استخدمت الدعاية بشكل واسع في العصر الإسلامي، إذ استخدمها الأمويون في بناء دولتهم ومواجهة معارضيتهم، واستمر استخدام الدعاية في مختلف العصور وصولاً إلى العصر الحديث، من خلال التأثير على الرأي العام ليصبح لكل دولة أو جماعة سياستها الدعائية الخاصة بها لدحض الدعاية التي يقوم بها الخصوم وترسيخ آرائها ومنطلقاتها السياسية والفكرية (تابلور، 1978) (نامي، 2016).

فيما تذهب آراء أخرى إلى أن الدعاية كآلية منظمة تهدف إلى التأثير المباشر وغير المباشر في الرأي العام، ويعدده أداة من أهم أدوات الصراع السياسي والسياسة الخارجية للدول، لم تظهر إلا في مطلع القرن الماضي، وذلك بعد التحولات الكبيرة التي تعرضت لها البيئة الدولية على اثر الحروب المتكررة التي اندلعت، وفي مقدمتها الحرب العالمية الأولى، لتتحول الدعاية من مجرد سلوك أو تجارب إلى علم يقوم على آلية وأسس ثابتة، وقد أدى تطور الإمكانيات والتكنولوجيا الحديثة وتوظيفها في المجالات كافة، إلى استخدام أساليب وطرق دعائية جديدة للتأثير في المجتمعات الإنسانية وتحريك ردود أفعالهم باتجاه هدف معين (مضحي و موسى، 2009).

وتتسم الدعاية بالعديد من الخصائص، منها:

- 1- تسعى الدعاية الى تحقيق هدف معين يتمثل بالتأثير المتعمد والمقصود في المعلومات والآراء والاتجاهات والمعتقدات والسلوك، وذلك بالاتجاه الذي تستهدفه الجهة القائمة بالدعاية.
  - 2- تعد الدعاية فن التأثير والسيطرة والإلحاح من أجل قبول وجهات نظر القائم بالدعاية وأهدافه التي يصبو إلى تحقيقها.
  - 3- لا تعتمد الدعاية الموضوعية في توجيه رسالتها، لأنها تكون عبارة عن تعبير ذاتي تتجسد فيها شخصية القائم بالدعاية وسلوكه.
  - 4- تقوم الدعاية بعرض الأفكار والآراء المهنية، كما أنها تقوم بتحريف مضمونها وشكلها بطريقة احتيالية تخدم أهداف الدعاية.
  - 5- إن حالتها التشبث الذهني والغموض الفكري تجعلان الإقناع بالفكرة المعروضة ممكن، وهو ما لم يكن ليتحقق لو ترك الفرد من دون ضغط نفسي أو توجيه فكري ناجم عن الدعاية.
- وهناك متغيرات عدة تؤثر في عملية صياغة القوالب الدعائية، وذلك من أجل بناء القيم، وتشكيل الميول، نذكر منها (صبار، الدعاية السياسية: مفهومها وأهدافها وأساليبها ، 2007):

- 1 - طبيعة الفكرة المطروحة، ومدى إمكانية تحقيقها على الواقع.
  - 2 - الهدف المقصود، وهل سيتحقق على المدى البعيد أم لا.
  - 3 - عامل الوقت، والذي يعد ضرورياً في عملية الصياغة، وذلك لتحديد المدة الزمنية لإنجاز تلك الصياغة.
  - 4- خصائص الجمهور المستهدف، والذي يجب أن تكون معروفة وواضحة حتى يتسنى للإمام بكل متطلبات عملية الصياغة.
- كما أن هنالك مجموعة من العناصر، والتي بمجموعها تحاول بناء الدعاية وتأسيسها، والتي يمكن حصرها بالآتي (صبار، الدعاية الصهيونية والأمن القومي العربي، 2008):

- 1- القائم بالدعاية: وهو ذلك الشخص، الذي يكون مسؤولاً عن صياغة المنتج الدعائي، والذي قد يكون مؤسسة أو سلطة أو حزب أو تنظيم ديني، وذلك بهدف السيطرة على الجمهور المستهدف من أجل تحقيق الغلبة لأفكاره وطروحاته، وبما ينسجم مع تطلعاته.
- 2 - محتوى بالدعاية: وهو المضمون الذي تحمله الرسالة الدعائية الموجهة الى الجمهور من أجل إعلامهم بماهية ذلك المحتوى.
- 3- وسيلة الدعاية: وهي الآلية التي تعتمد عليها الدعاية للوصول إلى الجمهور، ومن ثم التأثير فيهم، ومعرفة ردة الفعل لديهم.
- 4 - الجمهور: وهو المستقبل الذي تستهدفه الدعاية، وذلك مخاطبة إدراكاته العاطفية والعقلية، وذلك لإحداث التعبيرات السلوكية المفترض تحقيقها.

تشكل الدعاية بشكل عام، واحدة من أهم وسائل تغيير الآراء لدى الجمهور، فضلاً عن كونها الأكثر فاعلية في نفس الوقت، ولكون عملية تغيير الآراء وتوجيهها الى اتجاه معين، تعد من الأمور الصعبة، فان بعض الأطراف في المجتمعات الإنسانية لجأت إلى استخدام الطريق الأيسر والأكثر سهولة وفاعلية لتوجيه الرأي العام وباقي أفراد المجتمع نحو مسألة أو قضية ما، عبر أساليب متعددة منها (العبد، 2007، الصفحات 67-76):

- 1- أسلوب التكرار والملاحقة: والتي يعدها البعض من انجح أساليب الدعاية لتغيير الرأي العام.
- 2- أسلوب الإثارة العاطفية: إذ أن الدعاية تعتمد بشكل كبير على ما يتعلق بالعواطف وإمكانية اثارتها.
- 3- أسلوب عرض الحقائق: ويعتمد على وصول الحقيقة إلى أكبر عدد ممكن من المجتمع، على أساس أن الحقائق الملموسة

أقوي من الأكاذيب والتهويل والشائعات.

- 4- أسلوب تحويل انتباه الجماهير: وهو الأسلوب الناجح الذي يستخدمه الكثير من رجالات السياسة والأمن والاستخبارات، عبر تحويل انتباه الجمهور إلى موضوع آخر أكثر أهمية من الموضوع المثار.
- 5- أسلوب افتعال الأزمات: وهو من الأساليب الحديثة لتغيير الرأي العام من خلال استخدام بعض الظروف والأحداث من أجل صنع أزمة تؤثر في الرأي العام وتستفيد منها الدولة أو أي طرف آخر.
- 6- إثارة الرعب والفوضى: وذلك من خلال استغلال دوافع الأمان لدى البشر في إثارة الرعب والخوف والفرع لإرهاب المجتمعات وإخضاعها عبر استخدام وسائل مختلفة.
- 7- الشائعات: من خلال الترويج لأمر مختلق لا أساس له في الواقع يعتمد المبالغة والتهويل، بهدف التأثير النفسي في الجمهور أو الرأي العام تحقيقاً لأهداف متنوعة.

#### ثانياً: مفهوم الطائفية:

يتطلب فهم معنى مفهوم الطائفية بشكل واضح تقديم تعريف واقعي لها وتوضيح أسبابها الحقيقية في المجتمعات الإسلامية، وعلى الرغم من أن موضوع الطائفية يعد من المواضيع التي شهدت نوعاً من الخلط والتداخل في المعنى والاصطلاح الذي ساهم في زيادة غموضها، فضلاً عن كونه مثل سائر المفاهيم التي قدمتها مختلف الثقافات العالمية للظواهر الإنسانية، والتي تتداخل فيها الكثير من الجوانب (الدينية، السياسية والاجتماعية)، إلا أننا سنحاول توضيح المعنى عبر تقديم تعريف قريب إلى الواقع، يأخذ بالاعتبار بعض الكتاب والباحثين المهتمين بهذا الموضوع المهم، فمفهوم الطائفية لغة مشتق من جذر متحرك، ومأخوذ من (طاف، يطوف، طوافاً، فهو طائف)، وبموجب لسان العرب فإن "الطائفة من الشيء: جزء منه"، ويقال طائفة من الناس وطائفة من الليل، والطائفة الجماعة من الناس والطائفة الرجل الواحد فما فوقه (منظور، 1981)، وجاء في القرآن الكريم (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) (القرآن الكريم)، ويقابل هذا المصطلح في اللغة الإنكليزية مفردة (Sectarian) التي تعني العضو في جماعة أو الشخص ذو الأفق الضيق والمغلق على أفكار جماعة معينة (عبد اللطيف و العرداوي، 2016).

وإذا ما علمنا، إن البناء اللفظي يتضمن معنى تحرك الجزء من الكل من دون أن ينفصل عنه، بل ينطوي تحت إطاره أو يتحرك في حدوده وربما لمصلحته، وذلك المفهوم يتضمن معنى الإقلية العددية المتحركة في محيط الكل إذا ما عرفنا أنه مفهوم كمي وعددي لا غير، لذلك يستخدم اللفظ ليشير إلى كيانات مختلفة ومتعددة في سماتها وخصائصها، ولكن العامل أو القاسم المشترك فيما بينها يكمن في القلة العددية، ومن ثم فقد تم مزج مفهوم (الطائفية) ذات المكون العددي مع مفاهيم أخرى تحمل أفكار ومضامين فكرية أو فلسفية أو عرقية أو دينية ومذهبية، وبذلك فقد تحول إلى الفاعلية الخاصة بـ(الأقلية)، والمنفصلة عما عليه الكل، لذلك أضحي مفهوم الطائفة يستخدم بدلاً عن مفاهيم (الملة، العرق والدين)، والتي كانت سائدة قبل ذلك، فيما عرفها آخرون بأنها "سلوك التعصب لصالح المجموعة التي ينتمي إليها الشخص تجاه المجموعات المختلفة الأخرى، وذلك من خلال إظهار التباين معهم، وتعرف كذلك بأنها تمسك مجموعة معينة بمصالحها ومنظومة قيمها المشتركة وممارسة التعصب في الحق والباطل" (العنواني، 2015).

ومن التعريفات المهمة للطائفية "أنها ميل فردي أو اجتماعي لتفضيل تفسير محدد أو مدرسة فقهية لدين أو مذهب على غيرها، يتأثر بالظروف السياسية والاقتصادية مدعوماً بمفهوم اعتبار الذات في تفضيل أبناء الدين أو المذهب على غيره، وقد تتصاعد هذه الميول في بعض الأحيان، إلى الحد الذي تتخذ فيه أشكالاً عدوانية تجاه الآخرين من غير المذاهب والأديان، ويكون هناك ميل إلى الرفض والنبذ وحتى العزلة، ويمكن أن تدرج ضمن نتائج تفاعل عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية، ذات مساس مباشر بحياة الفرد" (صالح، 2016).

فيما عرفها آخرون بأنها "نزعة وميل نحو خلق جماعات إثنية على أسس لغوية أو دينية أو عرقية أو ثقافية لتقسيم المجتمع، وتطغى هذه النزعة حينما يكون رجل السياسة غير وطني أو تكون الدولة ضعيفة فيسهل اختراقها وضرب وحدتها وتماسكها الداخلي، وذلك بتقسيمها إلى طوائف تتصارع على السلطة والتسلط على باقي الطوائف" (محيسن، 2017).

في حين وصفها الدكتور عبد الخالق حسين في تعريفه "بأنها نزعة سياسية لا علاقة لها بالعقائد الدينية أو المذهبية، وإنما استغلت الخلافات المذهبية لأغراض مصلحية بعيدة عن الدين وتطورت هذه الخلافات لتصبح تعصبا أعمى أشبه بالعصبية القبلية" (حسين، 2011).

والطائفية نسبة إلى الطائفة، وتعني التعصب لطائفة معينة، ويمكن تصنيفها إلى عدة أنواع منها السياسية والدينية

والاجتماعية، وبين هذه الأنواع شبه تداخل وتشابك، بيد أنها لا تعطي معناً موحداً، وعليه فإن الطائفية "هي نزعة سياسية لا علاقة لها بالعقائد الدينية أو المذهبية، وإنما تم استغلالها من قبل البعض في ترسيخ الخلافات المذهبية لأغراض مصحبة ضيقة بعيداً عن الدين (عبد اللطيف و العرداوي، 2016، صفحة 276).

وقد اختلطت تلك المفاهيم في بيئة كانت تنصف بالتأزم من الناحيتين الفكرية والسياسية، والذي نتج عنها مفهوم الطائفية كتعبير عن إشكالية تعيشها المجتمعات العربية والإسلامية في كثير من الدول مثل ( لبنان، العراق، اليمن، سوريا، السعودية، البحرين، الكويت، إيران، باكستان وأفغانستان)، وبذلك، وعلى أساس ما تقدم فقد تحول الجزء إلى الكل، والبعض إلى كيان مستقل، وأضحت الطائفية مذهباً وإيديولوجية وهوية لتحل محل الهويات الأخرى والانتماءات الأعلى، فضلاً على المحسوبيات، بل وبدأت تتعالى عليها وتتجاوزها لابل قد تبدي الاستعداد للتقاطع معها وأخذ موقعها (العلواني، 2015).

وهناك فرق واضح بين كل من الطائفة والطائفية، يكمن في أن الأولى، هي تكوين تاريخ وامتداد اجتماعي وارث فقهي، اختلط فيه ما هو صحيح، وما هو مغلوط فيه أحياناً، لكنها تبقى عبارة عن تكوين أصيل وموجود، أما الطائفية – فتعد توجه سياسي يراد به تحقيق أهداف وامتيازات عبر توظيف الطائفة وإظهارها متميزة عن الأخرى، لذلك فإن الطائفية تعد ميلاً فريداً أو اجتماعياً لتبني رأياً محدداً أو مدرسة فقهية لمذهب معين من دون غيره من المذاهب الأخرى، إذ ما علمنا، أن ذلك الرأي يتأثر بأوضاع سياسية واقتصادية واجتماعية، فضلاً عن أن صفة التعصب تدخل في عملية تفضيل مذهب أو دين على المذاهب ولأديان الأخرى، وقد يتصاعد ذلك التعصب ليصل إلى حد ممارسة العنف ضد الآخرين أو العزلة عنهم، وعليه فإن الطائفية هي نتائج علاقة الدولة بمجتمعها المتعدد، ناهيك عن سوء إدارتها لذلك التعدد، إذ يمكن أن تنتمي الطائفية إلى تكوين اجتماعي وسياسي وإنساني، وهي بذلك تكون (الطائفة)، لكنها تستثمر من أجل تحقيق أبعاد سياسية (رحيم، 2016).

ومما لا شك فيه أن لظهور الطائفية أسباب عدة يمكن إيجازها بالآتي:

- 1- الأسباب التاريخية: إن ما مر به مختلف البلدان من أحداث تاريخية كانت سبباً رئيسياً في ظهور وانتشار الطائفية، إذ تم توظيف تلك الأحداث من أجل تحقيق مصالح مستثمري الطائفية من أحزاب سياسية أو دول خارجية أو رجال دين.
- 2- الأسباب السياسية: إذ أن الحكومات الدكتاتورية أو المتمثلة بقوة الاحتلال أو تلك المدعومة بالنفوذ الخارجي أو الأنظمة الاستبدادية، عادةً ما تؤمن إيماناً مطلقاً بالقاعدة التي فحواها (فرق تسد)، التي لطالما استخدمتها القوى التي أرادت تسيد الشعوب، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن الكثير من تلك الأنظمة المستبدة تقمع أكثر بأقلية أو بالعكس، فقد انقسم المجتمع آنذاك إلى فريقين، فريق كان حليفاً للنظام، لكونه كان مستفيداً منه، وتحول إلى أداة من أدوات قمعه، وفريق آخر كان منبوذاً ومتهماً ومطارد ومضطهد، لكونه كان بالصد من تلك الأنظمة الاستبدادية، وذلك من شأنه أن يعمق الهوة بين مكونات ذلك المجتمع.
- 3 - الجهل: يعد الجهل أرضية خصبة للتطرف بكل إشكاله وألوانه، القبلية والمناطقية وغيرها، والتي من أخطرها، التعصبيين الديني والمذهبي، وذلك بسبب إضفاء عامل القداسة المدعاة أو المتهومة، وذلك متأث من كون كل من الجهل والامية، يمكن أن تعطي أو تنتج لونا من التدين فيه الكثير من ملامح السطحية والخرافة والتعصب، لاسيما إذا ما استثمرت أياد خبيثة عامل الجهل لتوظيفه باتجاه تأجيج العصبية لمأرب وأغراض خاصة بها سياسية كانت أم من نوع آخر.
- 4- الأسباب الدينية: إذ تعد بعض التأويلات المختلفة لنصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية، فضلاً عن بعض الاجتهادات البعيدة عن الحقيقة، من الأبواب التي فتحت مجالاً واسعاً للفتن الطائفية في المجتمعات الإنسانية، لاسيما إذا ما اقترنت بالتطبيق العملي لتصبح بشكل تعصب أعمى بعيد عن مبادئ الدين الإسلامي الحنيف، والمستند على آليات الحوار الهادف والبناء مع الآخرين (عبد اللطيف و العرداوي، 2016، صفحة 277).

#### المحور الثاني: واقع ومستقبل الدعاية الطائفية في العراق:

##### أولاً: تطور المشكلة الطائفية:

هناك تلازم تاريخي بين كل من الاستعمار والطائفية، فما حل الاستعمار بأرض، الا وكان سلاحه الأبرز فيها الطائفية، أي عبر استغلال مفهوم الأقليات في تلك البلاد، لاستخدامها وللعب بورقتها ضد الأغلبية، كما حصل في البلاد العربية والإسلامية أثناء فترات الاحتلال (العثماني، الفارسي، الفرنسي، البريطاني والإيطالي وغيره )، حيث لم يبرز مفهوم الطائفية، بعده إشكالية أو أزمة إلا في القرنين الأخيرين خاصة، وذلك تحت تأثير عوامل داخلية وخارجية في ظرف تاريخي معين، ساعد على إحداث نوع من التفاعل بين العوامل الداخلية والمؤثرات الخارجية.

كما استثمرت الحركة الصهيونية العالمية موضوع الطائفية أيضاً، من خلال ما تم التعرف عليه من أدبيات ومحاضر مؤتمرها

العالمي في بازل بسويسرا عام 1879، وفي العصر الحديث استثمرت الولايات المتحدة الأمريكية الحليف الاستراتيجي لإسرائيل، مصطلح الطائفية عبر تقديم الدعم لبعض الطوائف المتطرفة عقائدياً في المنطقة العربية الإسلامية، وذلك من أجل إشغالها بالعنف، وإشغالها عن مجرد التفكير في مهاجمة إسرائيل أو حربها (صبار، الدعاية الطائفية والرأي العام العربي، 2015).

وفي هذا الإطار يرى زبنيو بريجنسكي، مستشار الأمن القومي في زمن الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر، وأول من دعا "لتفكيك (النظام الإقليمي العربي)، وإعادة تشكيله على أسس عرقية وطائفية"، أن أفضل وسيلة لتفتيت الأنظمة والدول والشعوب، هي تعميق التعدد المذهبي والطائفي والعرقي، من خلال تمكين طائفة بعينها ودعمها على حساب بقية المكونات، وبهذا ستعاني تلك المجتمعات من مشكلة دائمة، تتعلق بخلق التوافق النسيجي فيما بينها" (صبار، الدعاية الطائفية والرأي العام العربي، 2015).

وهو ما نراه واضحاً في بعض أشكال الصراعات الدائرة بين كل من (السعودية وإيران) أو بين (تركيا وإيران)، وما تكون لهذه الدول من محاور في هذا دخلت فيه دول أخرى، ان هذا الصراع الذي يفتح صفحات مشروع كبير يرتبط بعقد سياسية أكثر منها دينية وهي وسيلة لتطبيق ما يسمى بالفوضى الخلاقة التي أعلنت عنها رسمياً الإدارة الأمريكية على لسان الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الابن، والتي تدعو إلى تشكيل شرق أوسط جديد (محفوظ، الدولة والطائفية في الخليج العربي، 2011).

وفي الكثير من الأحيان تكون الطائفية السياسية مكرسة من ساسة يستغلون الدين أو المذهب للحصول على ما يعرف ب(العصبية) ، كما يسميها ابن خلدون أو (الشعبية)، كما يطلق عليها في عصرنا الحاضر، ليصبح السياسي الانتهازي قادراً على الوصول إلى السلطة، إذ إن مجرد الانتماء إلى طائفة أو مذهب معين، لا تجعل الإنسان المنتمي إلى تلك الطائفة (طائفيًا)، كما أن عمله لتحسين أوضاع طائفته أو المنطقة التي يعيشون فيها دون إضرار بحق الآخرين لا يجعل منه كذلك (طائفيًا) ، ولكن الطائفي بصورة عامة، هو الذي يرفض الطوائف الأخرى ويسلبها حقوقها أو يكسب طائفته تلك الحقوق التي لغيرها تعالياً عليها أو تجاهلاً لها وتعصبا ضدها (محفوظ، الدولة والطائفية في الخليج العربي، 2011).

من خلال ما تم تناوله، فإن الطائفية هي محاولة التأثير على الرأي العام وعلى سلوك المجتمع عامةً، عن طريق توظيف أفكار ومعتقدات وآراء دينية معينة ليس بالضرورة أن تكون صحيحة من أجل تحقيق أهداف ومكاسب سياسية أو غيرها من المكاسب الاقتصادية غير المشروعة، في حين يقصد بالدعاية الطائفية، محاولة التأثير في الرأي العام وفي سلوك المجتمع عن طريق توظيف أفكار ومعتقدات وآراء دينية معينة ليس بالضرورة أن تكون صائبة من أجل تحقيق أهداف ومكاسب سياسية.

ولقد أضحت الدعاية الطائفية في عصرنا الحاضر أكثر قوة وتأثيراً، وذلك بسبب ظهور ما يعرف بوسائل الإعلام الجديد ومواقع التواصل الاجتماعي واستخدام وسائل جديدة في إيصال المعلومة وبت الأخبار، فضلاً عن استخدام التقنيات التكنولوجية الحديثة والمتطورة في وسائل الاعلام المختلفة، ففي المنطقة العربية تعمل العديد من المؤسسات الإعلامية المختلفة التوجهات ، والتي تقف ورائها أجنداث سياسية وإقليمية تبث للجمهور العربي، وفي الوقت نفسه تعمل على تغذية الطائفية وترسيخ جذورها لدى الجمهور المتلقي، وتحاول في الوقت نفسه تدمير روح المواطنة والانتماء بغطاء ديني، ومن المؤسف أنها أصبحت مؤثرة إذا ما عرفنا، أن لها - اي الطائفية - جمهور واسع، فمثلاً عندما نتكلم عن ما يعرف بالدعاية الطائفية، فإن خير مثال على ذلك هو العراق، إذ يتحدث الكثير من المروجين للدعاية الطائفية عن أمور ومسائل تحفز الفعل ورد الفعل الطائفي لدى أفراد المجتمع عامةً، مثل الحديث عن (مكونات الشعب، التقسيم الطائفي، الواقع الجديد وغيرها من المسائل)، التي ترسخ الفكر الطائفي من جهة وتوفر بيئة صحية لبروز أطراف معينة في المجتمع، تعمل على تغذية هذه الأمراض المجتمعية لضمان بقائها وديمومتها على مسرح الأحداث، ومن ثم تصاعد نفوذها وتأثيرها عليه، أضف إلى ذلك فإن البعض من تلك المسائل - المذكورة آنفاً - بعضها مغلوطة فيها علمياً ولا زالت تمثل مثار جدل كبير بين مختلف الفئات (الهيتمي، 2013).

تتفق آراء العديد من الباحثين والمختصين في الشؤون السياسية والإعلامية، بأن الواقع الطائفي والتمزق الذي اتسم به بعض أطراف وفئات المجتمع العراقي بعد 2003، لم تكن له جذور حقيقية راسخة في المجتمع، رغم المغالطات الكثيرة التي يحاول البعض، بتحليلات إيحائية، أن يعكس عنها صورا غير منطقية.

إذ إن بعض أمثلة الصراع والنزاع الداخلي، تمثل في الحقيقة صراع بين قوى دولية وإقليمية، لكنه يتعزز أو يأخذ تبريرات طائفية أو صراع مصالح وتعدد سلطات غير متوافقة في إدارة البلاد، وهو ناتج عن عدة أسباب، من أهمها خلخلة وضعف بعض أركان الدولة العراقية ومجتمعها، وهو نتاج لبعض ممارسات الاحتلال الأمريكي، الذي ساهم في تدمير جزء كبير من مؤسسات الدولة العراقية وبنيتها الاجتماعية، زاد من ذلك الأداء القاصر وغير المنضبط لبعض الأطراف السياسية والدينية، التي حاولت بدعايتها الطائفية والمدعومة من الاتها وأدواتها الإعلامية، ان تروج بشكل أو بآخر للفكرة الإيديولوجية المعتمدة على الطائفة، التي

تحاول أن تصور أن الطرف الآخر هو العدو الأول، وبالتالي تسعى لبناء فكرة تقوية مجموعات ضيقة الأفق على أساس إضعاف وتمزيق البنية الكلية للمجتمع العراقي.

وفي النظر لأساس مشكلة الطائفية في العراق، نجدها ليست اجتماعية البنية أو الأساس، وإنما هناك بعض المؤمنين والداعمين لهذا النوع من الأفكار الضيقة، ومن ذوي المصالح الإقليمية، ولديهم إمكانياتهم الإعلامية وخطابهم الذي يؤسس لدعاية سياسية طائفية، تبث رسائلها للمجتمع، وبالتالي تنمي هذه الأفكار العقيمة وتفتت المجتمع وتحوله الى مكونات متناحرة. وفي هذا السياق الإعلامي يقول الكاتب الأمريكي نغوم تشومسكي في كتابه (هيمنة الإعلام: الانجازات المذهلة للدعاية)، "بان الدعاية التي تتم بإشراف الدولة حينما تدعمها الطبقات المتعلمة وحين لا يسمح بأي انحراف عن الهدف، بإمكانها أن تحدث أثراً كبيراً. ذلك كان درساً تعلمه هتلر وكثيرون غيره، ويتم إتباعه حتى اليوم" (الهيئة، 2013).

لذا فإننا يمكن ان نرى بروز دعاية سياسية عراقية تغذيها قوى سياسية تمتلك العديد من المقومات مثل (السلطة، المال والقدرة على التوجيه)، فضلاً عن استخدامها لوسائل التأثير والاتصال المختلفة ووسائل الإعلام الجديد ووسائل التواصل الاجتماعي بمختلف أنواعه، وكذلك الوسائل التقليدية التي يمكن أن يكون لها تأثيراً أشد وأقوى، كـ بعض المؤتمرات والخطابات السياسية المنشئة.

ففي مراجعة بسيطة لمضمون خطب بعض الساسة العراقيين بمختلف انتماءاتهم وتوجهاتهم السياسية والطائفية، من الذين يروجون للطائفية، أكدت بان الكثير منهم يحذر جمهوره من العدو الداخلي الآخر، بمسميات مختلفة للطائفة الأخرى، وبالتالي أصبحت هناك مسميات معروفة ومتداولة للتعريف بالطائفة الأخرى، فضلاً عن أن هذه الخطب تدعم الهجوم على الآخر بصيغ تحريضية تارة وتخويفية تارة أخرى، وتعتبر الآخر غريباً عن المجتمع ومسلوخاً عنه، ومن خلال ما تقدم، نستنتج أن الطائفية بكل أشكالها وعبر دعائها وداعميها، تسعى لهدف مركزي، هو تقنيت الدولة العراقية الحديثة ومجتمعها المتناسك، وقد حققت بعض أهدافها في المراحل الأولى بعد عام 2003 صعوداً، إلا أنها، وبعد التغيرات التي شهدتها المجتمع عامةً، اضمحلت وتراجعت (الهيئة، 2013).

#### ثانياً: انعكاسات التأجيج الطائفي على الوحدة الوطنية

اتسمت ظاهرة الطائفية بالعديد من الصفات والمميزات، التي في مقدمتها عدم الثبات وتغير المفردات والأدوات واليات العمل مع تغير الزمان والمكان، لتشكل خطراً، بفعل انتشارها السريع وأثارها وانعكاساتها الخطيرة والمدمرة على المجتمعات الإنسانية، والتي تتوزع بين ما هو (سياسي، أمني وديني وثقافي).

ففي حين تتداخل الكثير من الآثار السياسية مع تلك الدينية والثقافية، إذ ان الحركات الإسلامية تؤدي أدواراً مهمة في توجهات وميول السلوك السياسي لقطاع كبير من المجتمع ونخبته السياسية، ليصبح هناك تداخل كبير بين السياسة والدين، عبر تأسيس ظاهرة التنوع الطائفي، والذي تقوم به بعض الأطراف التي تتبنى الإسلام السياسي، سواء تلك التي تمثل الدولة أو مجموعات فاعلة من خارجها، أو حتى تلك التي تمثل قوى خارجية، مما يؤثر بشكل سلبي على المجتمع ويحول التنوع المفيد إلى تناحر طائفي يهدد وحدة المجتمعات، واحتمالية انهيار الدولة الوطنية وإعادة بنائها على أسس طائفية بحتة، وقائمة على هويات فرعية (محيسن، 2017، الصفحات 22-23).

فيما تبرز الانعكاسات الأمنية للظاهرة في المجتمعات والأنظمة التي ليس لديها مناعة ضد نشوب النزاعات الطائفية والمذهبية، والإخلال بأمنها واستقرارها على المستوى الداخلي، وانتشار المجموعات التي تستخدم العنف وزيادة مؤشرات التقسيم وفشل الدولة، لاسيما تلك التي تتخذ من الدين والطائفة غطاءً لها، وفقدان سيطرة الدولة على الأوضاع الداخلية، مما يزيد من احتمالية انتقال النزاع الى مناطق إقليمية أخرى، فضلاً عن آثار أكثر خطورة تتمثل في ظهور التيارات المتشددة والمتطرفة، والتي تنتهج أساليب ترتكز على القتل والتهجير وإقصاء الآخر سبيلاً لها في تحقيق أهدافها، وفي الإطار ذاته، فان الآثار السلبية للطائفية تتمثل كذلك في الجانبين الديني والثقافي عبر ربط أي شكل من أشكال التنافس السياسي أو الاجتماعي بصيغة دينية وطائفية، وتوظيف الخطاب الديني لتأطير بعض الأحداث السياسية والتاريخية، والاستفادة من اختلافات المجتمع في تحقيق بعض الأهداف والمصالح الذاتية (محيسن، 2017، الصفحات 24-25).

كما أدت التغيرات المتسارعة التي تعرضت لها المجتمعات الإنسانية وتساعد أشكال الطائفية فيها، الى تداول عدد من المصطلحات الحديثة، ومنها مصطلح الدعاية الطائفية، والتي تعني استخدام بعض الأنظمة السياسية والقوى الطائفية، للدين والمذهب، كأداة للتحريض والتأجيج الطائفي، وذلك من خلال مختلف الوسائل والمنابر الإعلامية، ويستهدف التأجيج الطائفي تحقيق ثلاثة أغراض رئيسة (الشيوخ، 2014):

- 1- حشد أكبر عدد ممكن من الأتباع والمناصرين للمعركة الدائرة.
  - 2- رفع مستوى القضية المتنازع عليها إلى مستوى (القداسة)، وإدخالها في الحرمة.
  - 3- إعطاء المعركة الدائرة صبغة شرعية، لهذا غالباً ما يتم تصوير المعركة مع الطائفة الأخرى بأنها معركة حق وباطل.
- ومع أن الشعب العراقي، تجمعته قواسم مشتركة عديدة، كاللغة والدين والثقافة، إلا أنه مجتمع مؤلف من طوائف ومذاهب مختلفة، ويمكن أن تكون هذه التعددية مصدر إثراء وقوة، لكن مما يؤسف له، هو أن هذه التعددية، أصبحت ذات تأثيرات سلبية في بعض الأحيان، ليس في حد ذاتها، وإنما لعدم توظيفها بالشكل السليم، أضف إلى ذلك الدور الذي أداه الاحتلال الأمريكي في توظيف هذه التعددية لصالحه، كما لا يمكن تجاهل، الدور الكبير لبعض الدول الإقليمية في إذكاء هذه الصراعات إلى جانب دور الأحزاب السياسية المرتبطة بأجندات خارجية في ظل غياب دولة المواطنة، وعدم وجود هوية جامعة الأمر الذي جعل العراق ارض خصبة للانقسامات وإذكاء الصراعات الطائفية.

ومن اهم وسائل التوظيف الدعائي للعامل الطائفي في العراق: (الصفار، 2009)

- 1- بث خطابات الكراهية، عبر مختلف الوسائل والوسائط الإعلامية.
  - 2- الترويج لفتاوى الذبح والتكفير والتفجير.
  - 3- بث مشاهد العنف، والتأجيج والتحريض الطائفي.
  - 4- تفجير مواقع العبادة والإساءة للرموز الدينية واغتيالهم.
  - 5- تصوير الصراعات السياسية والاقتصادية، بوصفها حرباً طائفية.
  - 6- الزج بالجماعات الدينية المتطرفة في الصراعات المسلحة.
- وكمثال على مدى اتساع دور الدعاية الطائفية في نشر خطابات الكراهية، والذي ساهم بقوة في إذكاء الانقسام المذهبي والصراع الطائفي، زيادة عدد القنوات الدينية الممثلة لطائفة معينة في العراق خلال السنوات السابقة، وهذه الظاهرة انتشرت في الكثير من دول المنطقة، وليس في العراق فحسب، إذ قفز عدد القنوات الفضائية العربية الدينية الناطقة باللغة العربية من 35 قناة عام 2009 إلى 135 قناة عام 2013، وتزايد العدد السنوات الست الماضية، وللبحث عن السر في تزايدها المُطرد تردح مجموعة من العوامل، يمكن أن نذكر منها: سعي كل دولة عربية إلى إنشاء قنواتها الدينية من أجل فرض "قهمها الوطني" للدين والإسلام تحديداً، واتساع مطالبه النخب الليبرالية بضرورة "إصلاح" الفكر الديني حتى يواكب العصر، وتوجّه الرأسمال العربي الخاص إلى الاستثمار في الفضائيات الدينية أو التي تدعى ذلك، وهذا يؤكد ارتفاع عدد القنوات التلفزيونية التي تخصصت في الوعظ والفتاوى الفضائية، وتستند إلى ما أصبح يُعرف بـ"الفقيه الفضائي"، ومُفسّر الأحكام وفق الشريعة الإسلامية، وقارئ الطالع والبخت، وبشبهه انتقال بعض القنوات التلفزيونية من بث المنوعات والطرب إلى نشر الدعوة الدينية (الصفار، 2009، صفحة 56).

وقبل الوقوف على آثار التأجيج الطائفي على الوحدة الوطنية، فإن تداعيات توظيف هذا السلاح الخطر امتد إلى مناطق عديدة بالعالم، أي انه لم يعد محصوراً بجغرافيا المنطقة فحسب، وقد بات العام اليوم يدفع ثمنا باهظاً جراء ما يحدث في المنطقة العربية، وفي هذا السياق، بدأت تتعزز قناعات لدى دول كثيرة مؤداها: إنه ليس بمقدور أي دولة منفردة القضاء على الإرهاب، وعليه، فإن المهمة تستوجب أن تتضافر كل الجهود الدولية في هذا السياق، إذ أن الإرهاب بات اليوم يمثل ظاهرة عالمية وليست حالة محصورة في منطقة جغرافية معزولة من العالم، كما أن الإرهاب الذي يحدث في المنطقة العربية له انعكاسات وخيمة، سواء على الصعيد الوطني أو الإقليمي أو العالمي (محفوظ، الدولة والطائفية في الخليج العربي، 2011).

وفيما يتعلق بتأثيرات التأجيج الطائفي على الوحدة الوطنية، فيمكن تحديدها بما يلي:

- 1- تعميق حالة الكراهية والصراع بين الهويات المختلفة.
  - 2- زيادة حدة الاحتقانات المذهبية والاصطفافات المذهبية.
  - 3- إنهاء حالة التعايش السلمي والوئام بين الطوائف المتباينة.
  - 4- نمو الأصوات الطائفية وغياب خطاب الاعتدال.
  - 5- تحفيز الجماعات الإرهابية على ممارسة القتل.
  - 6- تهديد الاستقرار السياسي والأمني في البلدان العربية.
  - 7- تغليب المصالح الطائفية والمذهبية الضيقة على المصالح العامة والعليا للوطن.
- والحقيقة التي ينبغي التنبيه لها، هي إن كل مظهر من المظاهر أعلاه، كفيل بتمزيق الوطن وإدخاله في حروب ونزاعات طويلة

الأمد، فكيف الحال إذا اجتمعت كلها في بلد ما، وعلى المدى القريب، ربما يحقق النظام السياسي الذي يستخدم الورقة الطائفية بعض المكاسب الآتية، إلا أنه قطعاً سيدفع الثمن باهظاً على المدى البعيد، لأن العبث بهذه الورقة وإثارتها، يعد كاللعب بالنار وهو أشبه بمن يربي الثعابين في منزله، حينها لن يعيش أمناً مستقراً، والدليل على ذلك في الأمثلة من بعض الأنظمة التي لعبت بهذه الورقة كيف تضررت واكتوت بنار الإرهاب ولازالت النزاعات مستمرة في بلدانها، رغم الجهود الدولية المستمرة لإيقافها (محفوظ، ضد الطائفية، 2009).

ثالثاً: مستقبل الدعاية الطائفية في العراق:

لمعرفة مستقبل الدعاية الطائفية في العراق، ينبغي، أولاً، تفكيك وتحليل المشكلة الطائفية، ومن ثم وضع الآليات المناسبة لمواجهتها والنقل من أخطارها، وللدعاية الطائفية في العراق، أدوات عدة، تحاول من خلالها تحقيق أهدافها وتنفيذ استراتيجيات عملها:

1- وسائل الإعلام الطائفية: إذ إن الاضطراب الذي طغى على المشهد العراقي خلال مرحلة معينة، انعكس بشكل أو بآخر على خطاب وسائل الإعلام، والتي أصبحت مرآة للاتجاهات السياسية المتصارعة والمتناحرة، خاصة تلك التابعة لأحزاب سياسية متنفذة أو تتبع أجندات دول خارجية، فضلاً عن تحول بعضها إلى أدوات لخوض معارك طائفية ومحرضة على كل من يخالفها، وإن الأمر الأخطر يكمن في دفاع وسائل الإعلام عن الأفكار المذهبية والأثنية وذلك عبر نقلها لمعارك الفضائيات العربية الدينية إلى الجمهور العراقي، حيث تحولت تلك الفضائيات الدينية إلى ساحات للصراع الديني والطائفي، وهكذا فإن بقاء وسائل الإعلام في نشرها لخطابي الطائفية والكراهية، بدون وجود قانون مفعّل يمنع ذلك، هو في صالح استمرار الدعاية الطائفية في العراق.

2- رجال الدين (المتطرفين): إذ أدى جزء من رجال الدين من ذوي المصالح الضيقة أو من المتطرفين والمربطين بأجندات خارجية، دوراً مهماً في تأجيج الطائفية داخل المجتمع بشكل أو بآخر، سواءً بالعلن أو بالسر، فعندما يحمل خطاب رجال الدين بعداً طائفيًا، فإنهم بذلك سيجعلون جمهورهم وإتباعهم المتأثرين بهم والتابعين لهم، يحملون هم أيضاً ذلك البعد القائم على مبدأ الطائفية، كما أن خطر ذلك البعد الطائفي يكمن في كونه يصدر من رجال دين، يعتقد، لا بل، يتوهم البعض من جمهورهم، بأنهم مقدسون، وإن ما يصدر عنهم من فتاوي وأحكام تعد من وجهة نظرهم شرعية وغير قابلة للنقاش أو الجدل.

3- الأحزاب السياسية، إذ تعد الأحزاب السياسية، في إطار النظم التعددية، أحد أهم الأركان الأساسية للديمقراطية سواء أكان ذلك في البلدان المستقرة ديمقراطياً، أو تلك التي تشهد تحولاً باتجاهها، ولكن البعض منها يمكن أن يحاول استغلال التنوع والاختلاف المذهبي في المجتمعات الإنسانية والالتكاء عليه، لغرض تحقيق بعض الأهداف والمصالح والمزايا المتعلقة بالظفر بمغانم السلطة أو تنفيذ أجندة الطرف الداعم له، أو وجود أطراف أخرى لديها ولاءات غير وطنية، مما يجعلها تغلب مصالح بعض الأطراف والدول على مصالحها الوطنية كما توضح ذلك في المشهد العراقي.

4- انعزال النخب: أن تزايد انعزال النخبة العراقية المثقفة عن المجتمع، وذلك لأسباب عدة، في مقدمتها، إيمان جزء كبير منها، بأن ليس لها دور في المجتمع، فضلاً على اتساع الهوة بينها وبين مجتمعها.

ومثلما هناك أدوات للدعاية الطائفية في العراق، تستخدمها بعض الأطراف في بث ما تريده من غايات، فإن هنالك أيضاً مرتكزات ودعائم تستند إليها الدعاية الطائفية في اضعاف سمة الشرعية عليها، يمكن حصرها بنقاط أساسية، منها توظيف الحجة الدينية، التي تعد الركيزة والدعامة الرئيسة التي تعتمد عليها الدعاية الطائفية، وذلك لمنحها شرعية دينية وعلمية في خطابهم للجمهور مع الطائفية التي ينصون تحتها وينتمون إليها.

وإذا ما علمنا، أن الخطاب الديني الطائفي، داخل أروقة الأحزاب السياسية، غالباً ما يكون حصراً ما بين المنتمين لتلك الأحزاب، وكما أن الخطاب الطائفي في المسجد يكون مغلقاً ومقتصرًا على المصلين فقط، في حين يظل الخطاب الديني عبر الفضائيات مفتوحاً ومستمرًا ويكون باتصال مباشر مع الجمهور على الرغم من خلوه من مبدأ الحوار، فضلاً على تعددية الرأي ليستوعب الجميع، ومن ثم يتحول إلى مادة للنقاش، وقد يمتد ذلك الحوار إلى مواقع التواصل الاجتماعي، لأن أغلب الفضائيات تعتمد في بث برامجها على منصات الكترونية لينتهي ذلك الخطاب الديني الطائفي إلى زيادة عزلة الطوائف الدينية في تجمعات افتراضية مغلقة على إبقاء تلك الطائفية الدينية أو تلك (الغدامي، 2011).

علاوة على الخلط بين التاريخ والذاكرة الجمعية، إذ أن أغلب الباحثين في مجال التاريخ، وعند محاولتهم البحث عن الحقيقة نراهم يسعون إلى إن يكونون موضوعيين وعلميين، وإن يحاولوا التجرد عن كل ما يتعلق بالعواطف والميول، بل يتطلب ذلك منهم النأي عنها، ومن ثم التعامل بحيادية، فضلاً عن الرجوع إلى مصادر متنوعة ومختلفة، وحتى تلك المتناقضة، بحثاً عن البراهين والأدلة، في حين أن الذاكرة الذاتية لا تعبر اهتماماً بالحقيقة، بل تولي جل اهتمامها وعنايتها بالماضي وأحداثه تلك، فضلاً على

أنها لا تبغي المعرفة، بل تعتمد إلى الغربة والتجمع والتنقل، ومن ثم تحاول محو بعض الأحداث لتعيد تشكيلها من جديد وتصميمها مرة أخرى على وفق عواطفها وميولها.

من المرجح، أن مشكلة الطائفية في العراق، نشأت بالأساس من مشكلة سياسية أكبر، يمكن تسميتها بالطائفية السياسية، والتي تشير إلى الدولة أو الحكومة التي تتبنى سياسات طائفية، وهذا يعني أن معالجة المشكلة والحد من مخاطرها وآثارها وانعكاساتها السلبية، لا تقف بالضرورة على حلول وإجراءات سياسية، مع الإقرار بأهميتها، وإنما هي بحاجة لحزمة من المعالجات (القانونية، التربوية، الثقافية، الاجتماعية، الإعلامية وغيرها من المجالات)، مضافاً إلى المعالجات السياسية، التي ينبغي أن تكون في مقدمة المعالجات والرافعة لها، كما أن معالجة مشكلة ما يعرف بالإعلام الطائفي بمختلف توجهاته، من الممكن أن يسهم بشكل أو آخر في التقليل من آثار المشكلة أو إنهاءها بشكل تام، وما نعينه هنا مشكلة التسعير الطائفي، ويمكن أن يكون التوجه لمعالجة المشكلة مدخلاً ملائماً لمعالجة المشكلة الأم المتعلقة بالطائفية السياسية.

ولتحقيق شرعية النظام السياسي ومن ثم توفير عوامل استقراره، فإن هناك بعض الشروط التي حددها كارل دويتش، ومنها أن تعترف الأحزاب والجماعات السياسية بالقوانين، التي ينبغي سنّها بشكل متناسق لا تناقض بينها، وإيمان الجميع بأن هذه القوانين ستطبق على الجميع بدون أي تمييز، وعدم تناقضها مع أعراف وتقاليد المجتمع الأساسية، مع مراعاة وصوله إلى درجة اعتباره قيمة اجتماعية عالية من قبل الجميع، مع إبداء النية الصادقة بتطبيق القوانين عامة (ناجي، 2008).

ومن أهم المعالجات، التي يمكن من خلالها تجاوز هذه المشكلة، وتطويرها (الشيوخ، 2014):

- 1- التعامل مع المواطنين على قاعدة المواطنة، وليس على أساس الدين أو المذهب أو الطائفة أو القبيلة أو المنطقة.
- 2- تعزيز قيمة الحوار ومبادئه وأخلاقياته لحل المشكلات القائمة، بدلاً من اللجوء إلى الوسائل العنيفة، فضلاً عن نشر ثقافة التعايش والاحترام المتبادل، والتأكيد على البعد الحضاري، الذي يمثل هوية لكل المجتمع العراقي بكل طوائفه وقومياته.
- 3- تنقية المناهج الدراسية من مفردات التكفير والتبذيع لبعض الطوائف الإسلامية، وإرساء مبدأ العدالة الاجتماعية، وإلغاء التمييز بمختلف أشكاله وأنواعه.

4- سن قوانين صارمة تجرم خطابات التحريض الطائفي، مع تعزيز مبادئ حقوق الإنسان، ووضع قوانين لحماية.

5- العمل المشترك على إيقاف القنوات الطائفية التي تبث الكراهية، أو محاولة كشف حقيقتها.

6- تشريع القوانين الصارمة لإيقاف المؤسسات الدينية المسؤولة عن إصدار والترويج لفتاوى التكفير والذبح.

7- التأكيد على أهمية التفاعل الثقافي، ما بين النخب الثقافية العراقية، ومن مختلف التخصصات.

ومع ان المطالب السابقة موجهة بحد ذاتها للسلطة السياسية، بالدرجة الأساس، لكن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال، تجريد المجتمع بمختلف مكوناته من مسؤولياته على هذا الصعيد، بل على العكس من ذلك تماماً، لذلك هناك حاجة ماسة إلى تعزيز حالة التعاون الشعبي والرسمي، للتصدي لهذه الظاهرة ومثيلاتها من الظواهر ذات البعد السياسي الخطير للمجتمعات الإنسانية.

وعليه، فإن بناء الدولة المدنية القائمة على أسس المواطنة، أمر ليس بالسهل أو متعلق بمجرد الرغبة أو التمني أو حتى الإرادة، وإنما يمكن أن يتحقق عبر كفاح تاريخي طويل، وهو أيضاً عملية اجتماعية تراكمية، فالدولة في السويد أو الدنمارك أو ألمانيا أو الولايات المتحدة وطبيعة علاقتها بمواطنيها، ليست وليدة الساعة أو رغبة هذا الحزب أو تلك الفئة وإنما جاءت بالتأكيد تنوياً لكفاح اجتماعي وسياسي عنيد تطلب الكثير من المثابرة والتضحيات.

كما نعتقد أيضاً أن بناء الهوية الجامعة لا يمكن أن يحدث في ظل الاستبداد، كذلك إنها لا يمكن أن تحدث دون وجود إطار سياسي يحمي هذه الهوية، ونعني بهذا الإطار تحديداً "دولة المواطنة". ففي ظل دولة المواطنة يمكن نزع فتيل النزاعات البينية سواء كانت دينية أو مذهبية أو طائفية، ومن ثم تعزيز الأمن والاستقرار، وإرساء العدل والمواطنة وسيادة القانون، وحماية حقوق الإنسان وتجنّب الأوطان من الانزلاق في مشاريع الفوضى والتقسيم والتفتيت.

بيد أن دولة المواطنة التي نرى فيها الرهان الأمثل في القضاء على كافة الصراعات الدينية والنزاعات الطائفية والتخندق المذهبية تقوم على حزمة من الأسس منها، الاعتراف بوجود ثقافات أو ديانات أو طوائف أو أيديولوجيات مختلفة، واحترام حق الغير وحرية، ومشاركة كل مؤسسات الدولة والمجتمع المدني وأفراد المجتمع في إقامة مجتمع ينشد الأمن والاستقرار والتعايش السلمي، مما يمهّد لقيام سلطة مستقرة داخلياً، ولا تسمح لأي طرف خارجي بالتدخل في شؤونه أو الاستفادة من بعض الاختلافات الداخلية لغرض بث روح الفرقة والنزاع والعنف، لتحقيق مصالح تلك الدولة وغيرها.

**الخاتمة:**

تأسيساً على ذلك، فإن للخطاب الديني الطائفي والدعاية الطائفية أثراً وانعكاسات سلبية تؤدي إلى دفع الجمهور والرأي العام يفقد القدرة على إدراك واقع النزاعات المسلحة، وتشكل ثقافتهم السياسية والدينية، وتوجهه إلى حيث تريد هذه الأطراف، التي تركز تفكيرها على تحقيق أهدافها الخاصة بالبقاء على رأس السلطة والاستفادة من مزايا النفوذ والسيطرة وسطوة السلطة. كما أنه يعمل على التقليل من مقاومة المجتمعات لبعض التفسيرات غير المنطقية والمخالفة للتاريخ والحقيقة، عبر الاستمرار ببيت أفكار وخطابات تركز على هذه التفسيرات وتدحض كل ما يخالفه أو يأتي بغيره من معلومات، فضلاً عن أنه يعمل على توظيف بعض المسلمات والأحداث التاريخية أو حرفها لتصب في مصلحة أصحاب الخطاب الطائفي المتطرف، فضلاً عن منح المسوغات التاريخية والدينية لاستمرار دعمه والدفاع عنه بكل السبل المتاحة القانونية وغير القانونية. علاوةً على ترسيخ بعض الأفكار الداعمة لمحاربة كل أشكال التقارب والوحدة والعيش المشترك بين مختلف الطوائف الدينية والعرقية والثقافية في المنطقة العربية عامة أو في العراق بخاصة، والعمل على تقويض مبادئ حسن الجوار بين الدول المختلفة طائفيًا، ومنح الشرعية الدينية لبعض الحركات الإرهابية المتطرفة التي تهدد السلم والأمن الدوليين. وعليه، فإن عدم القبول بتعايش الأديان والمذاهب والطوائف والقوميات المختلفة، سواء داخل البلد الواحد أو في البلدان المتجاورة، وعدم القبول بشرعية وقانونية الاختلاف داخل المجتمعات الإنسانية، مع استمرار الخطاب الديني الطائفي المغالي والمتطرف، سيكون له تأثيرات سلبية واسعة عليها، وستكون سبباً لنهاية المكاسب والإنجازات التي تحققت خلال المرحلة الماضية، بل وسيكون عامل تهديد حقيقي للنسيج الاجتماعي للمجتمعات العربية والإسلامية عامة والمجتمع العراقي بخاصة، مما يتطلب البدء بخطوات ملموسة وواضحة لمواجهة خطر الدعاية الطائفية، من خلال تشخيص كل من يتبناها أو يروج لها كمرحلة أولى، ومن ثم وضع خطط مدروسة لمواجهةها والحد من مخاطرها المدمرة للمجتمعات الإنسانية كمرحلة ثانية.

**المصادر والمراجع****المراجع العربية:**

- ابن منظور. (1981). لسان العرب (الإصدار عبد الله الكبير وآخرون). القاهرة: دار المعارف. القرآن الكريم.
- برهان شابي. (2014). مفهوم الدعاية ونماذجها. تم الاسترداد من <http://bit.ly/2qSsdQY>
- جلال الدين محمد صالح. (2016). الطائفية الدينية: بواعثها، واقعها ومكافحتها، دار جامعة نايف للنشر، الرياض، 2016، ص33-34. الرياض: دار جامعة نايف للنشر.
- جمال عسكر مضحي، و ياسين طه موسى. (2009، 12). الدعاية مفهومًا وتعريفًا وأسلوبًا: دراسة تحليلية عن الدعاية الإسرائيلية خلال خربها الأخيرة على غزة لعام 2008-2009. مجلة آداب الفراهيدي، 1، صفحة 556.
- حسن بن موسى الصفار. (2009). الطائفية بين السياسة والدين. بيروت: المركز الثقافي العربي. تم الاسترداد من المركز الثقافي العربي <https://www.saffar.org/?act=artc&id=3100>
- زينب كريم محيسن. (2017). الطائفية السياسية وعدم الاستقرار السياسي في العراق بعد 2003. رسالة ماجستير غير منشورة، 6. بغداد، العراق: كلية العلوم السياسية جامعة النهرين.
- سامر مؤيد عبد اللطيف، و عليوي خالد العرداوي. (2016). الطائفية وأثرها في بنية المجتمع المدني: مقارنة لترسيخ حالة التعايش السلمي في العراق. مجلة أهل البيت عليهم السلام، 20، صفحة 276.
- سعد محمد بن نامي. (2016). الدعاية السياسية والترجمة. الترجمة ودورها في تعزيز التواصل الثقافي. الرياض: جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية. تم الاسترداد من <http://bit.ly/2sqZnqZ>
- طه جابر العلواني. (2015). الانقسامات الطائفية في الوطن العربي وآثارها المستقبلية. تم الاسترداد من <http://bit.ly/2RNWHi3>
- عاطف عدلي العبد. (2007). الدعاية والإقناع: الأسس النظرية والنماذج التطبيقية. القاهرة: دار الفكر العربي.
- عبد الخالق حسين. (2011). الطائفية ومشكلة الحكم في العراق. بغداد: دار ميزوبوتاميا.
- عبد الله محمد الغدامي. (2011). الفقيه الفضائي: تحول الخطاب الديني من المنبر إلى الشاشة. بيروت: المركز الثقافي العربي.
- عزو محمد عبد القادر ناجي. (2008). اثر التمايز في عدم الاستقرار السياسي في الدولة. تم الاسترداد من الحوار المتمدن: <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?id=124634>
- فيلب تايلور. (1978). قصف العقول: الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي. (سامي خشبة، المترجمون) الكويت: عالم المعرفة.
- لقمان حكيم رحيم. (2016). الطائفية ومستقبل النظام السياسي في العراق. مجلة جامعة التنمية البشرية، 2، صفحة 50.

- لمياء سامح. (2014). الدعاية والإقناع واستراتيجيات التأثير: المنظومة الإعلامية الإسرائيلية نموذج مضاد. القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع.
- محمد الشيوخ. (2014). خطورة الاعلام الطائفي على الهوية الوطنية. تم الاسترداد من موقع النور: <http://www.alnoor.se/article.asp?id=260298>
- محمد رشيد صبار. (2007). الدعاية السياسية: مفهوما وأهدافها وأساليبها. بحث غير منشور مركز الدراسات الفلسطينية.
- محمد رشيد صبار. (2008). الدعاية الصهيونية والأمن القومي العربي. ندوة مركز الدراسات الفلسطينية. بغداد: جامعة بغداد.
- محمد رشيد صبار. (2015). الدعاية الطائفية والرأي العام العربي. نشرة مركز الدراسات الاستراتيجية والدولي.
- محمد محفوظ. (2009). ضد الطائفية. بيروت: المركز الثقافي العربي.
- محمد محفوظ. (2011). الدولة والطائفية في الخليج العربي. تم الاسترداد من مركز الخليج للدراسات والتنمية: <http://bit.ly/2PoDU5>
- نبيلة بن يوسف. (2011). الدعاية السياسية أثناء الحروب: دراسة حالة الدعاية السياسية في الحرب على العراق 2003. 4، صفحة 5.
- هيثم الهيتي. (9 تشرين الأول/أكتوبر، 2013). الدعاية الطائفية والرأي العام العراقي. صحيفة المستقبل، 19. تم الاسترداد من صحيفة المستقبل.

## Sectarian Propaganda: An Analytical Study of the Reality and Future of the Phenomenon - Iraq as a Model

*Muhammed Raheed Sabbar<sup>1</sup>, Amjad Zain Alaebdin Taama<sup>2</sup>*

### ABSTRACT

The problem of the study is focused on determining the extent to which the phenomenon of political sectarianism and its propaganda affects the unity of Iraq now and in the future, and what is the future of this phenomenon? The study is based on the hypothesis that "the phenomenon of political sectarianism and its propaganda in Iraq, which some political and social groups use to consolidate their influence and control, will have negative effects on the reality and will accept the country, which requires a serious stand by those concerned in order to keep society away from this dangerous scourge."

**Keywords:** propaganda; sectarianism; Iraq; Reflections; society.

<sup>1</sup>Baghdad University; <sup>2</sup>Mustansiriyah University. Received on 12/1/2020 and Accepted for Publication on 2/6/2020.